

الفصل الثاني

مؤامرات في قصور الخلفاء

obeykandi.com

تقديم :

أمدنا الفصل السابق بمادة غزيرة عن العناء الذى مُنى به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموها ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، فى الشام يوجد للأمويين أنصار وأشباع ، حتى فكر عبد الرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين (١) ؛ وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقطع من جسم الدولة دولة تظل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعض بعد أن يرهق الخلفاء ويُسقِض مضاجعهم ؛ وبين هذا وذاك يهب الخوارج والزنادقة لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ؛ ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين لينتهزوا فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل . هذا وغيره مما ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة بالفناء والزوال ، وأنه ينبغي أن يقتلوا كل من حامت حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس ، فقد أحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر ؛ وإذا فليستعمل العباسيون كل سلاح يضمن لهم السلامة ، ويكفل لهم النصر ، وكان من أبتى الأسلحة التى انتفعوا

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الأثير

٦ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد إلى الرقة

بها سلاح الاثتار والفتك بكل من يخشونه ، ولو كان ممن أمَّنوا وعاهدوا ،
وقد برعوا في استغلال هذا السلاح ليتقوا به شر من يخشى تمرّده ،
أو ليشاروا به من عدو قديم .

وفيما يلي سجل لأبرز مؤامرات هذا العصر :

أبو سلمة الخلال :

هو حفص بن سليمان ، وسمي الخلال نسبة إلى خِلال السيف وهي أغمادها ،
فقد كان يعملها . وكانت العرب تسمى من يعملها الخلال ^(١) ، وقيل إنه
سمي الخلال نسبة إلى الخُلّ فقد كانت له حوانيت يعمل فيها الخُل ^(٢) .

ولأبي سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبله نصيب كبير في إقامة الدولة
العباسية ، فلقد كان أبو سلمة عالماً بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن
التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من
أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه المكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة
وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيراً إلى خراسان للإشراف
على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعتزف بفضل هذا الرجل
في الوصول بالدعوة الجديدة إلى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر إلى نصر ، ووصلت المكوفة ،
أظهر قوادها أبا سلمة ، وسلموا إليه الرئاسة ، وسموه وزير آل محمد ، فدبر
الأمور ، وأظهر الإمامة الهاشمية ، ولم يُسمَّ الخليفة ^(٣) .

وبينما كانت الامبراطورية الإسلامية ترتعد تحت الخليفة الأموي

(١) الجهشيارى ص ٨٤

(٢) الفخرى ص ١٣١

(٣) الجهشيارى ص ٨٤

الآخر ، كان هذا لا يعرف اليد السكامة التي تحرك هذه العاصفة ، إلى أن عثر على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم . . فعرف أن إبراهيم هو غريمه فقبض عليه ، وأحس إبراهيم بنهيته تقترب فأوصى بالامر لأخيه السفاح وأمر أهله بمغادرة الحيمة إلى الكوفة ، فلما ورد هؤلاء الكوفة ، أنزطهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد الجبال مولى بني هاشم ، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكنتم أمرهم (١) .

ثم إن وزير آل محمد فكر فيمن يُسند له الخلافة بعد أن علم بموت إبراهيم . فهداه تفكيره - على ما يقال - إلى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ، وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، وعمر الأشرف بن زين العابدين ، فأرسل إليهم الكتب مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصد أولا جعفر الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب فالنق عبد الله المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالق عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق أولا ودفع إليه كتاب أبي سلمة ، فقال : مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ فقال له الرسول : اقرأ الكتاب . فقال الصادق لخادمه : أدن السراج مني ، فأدناه . فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال : قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله ، وركب في الحال إلى الصادق وقال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان . فقال له الصادق : ومتى صار أهل خراسان شيعة ؟ أنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟

(١) الجهمياري ص ٨٥ والفخري ص ١٢٤ .

هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هذا الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصيح على نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تَسْمَنَّ نفسك بالأباطيل ، فإن هذه الدولة ستتم هؤولاء . وقد جامنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبى سلمة . وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه ، فأجيبه (١) .

كان هذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف أحد من خبرهم شيئاً سوى أبى سلمة وخاصة خدامه ؛ وكانت جيوش الخراسانيين تعسكر فى ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعين (٢) ، واستمر الحال على ذلك نحواً من أربعين يوماً ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الإمام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطالم تفتح بعد (٣) . فهُم فى ذلك معه ، إذ خرج محمد بن إبراهيم الحميدى ، ويكنى : أبا حميد السمرقندى ، يريد الكِنَاسَةَ فلقى سابقاً الخُوارَزْمى ، وهو غلام كانوا أهدوه لإبراهيم الامام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبره أن إبراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته ، فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزَّاهم فى إبراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا إلى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يده

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٨٦ والفخرى ص ١٣٢

(٢) مكان بالكوفة منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٥٣

ورجله وبايعه ، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة
بجمام أعين ، فاستقر رأيهم على المضي إلى أبي العباس ومبايعته ، فخرجوا إليه ،
فلما عرف أبو سلمة هذا ركب في أصحابه إلى أبي العباس ، فأغلق الباب دونه
فاستفتح أصحاب أبي سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد . فأسمعه من
الداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه ، فاستقبل القبله ، فسلم ثم سجد ، وقبل
يد أبي العباس وقدميه ، وبدأ في الاعتذار ، فقال أبو العباس : عذرناك
يا أبا سلمة ، غير مُسَفِّد ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة
وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خل ، فانصرف إلى
معسكره بجمام أعين (١) .

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو بضمير غيره ، فلم تكن
سابقة أبي سلمة مشكورة عنده ، ولا زلت مغفورة لديه ، ولكن أبا العباس
كان لا يزال في حاجة إلى تأييد أبي سلمة ومناصرته ومن هنا قال هذا
القول وهو يخفى سواه .

خرج أبو العباس بعد هذا إلى المسجد ، وخطب الناس وأخذ بيعتهم ،
ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة في الميادين المختلفة ، كما ولى أخصامه
الإمارة على البلاد التي دانت لهم . ثم التفت بعد ذلك إلى أبي سلمة ليأتمر به
انتقاماً منه لما اقترف ، ناسياً يده الطولى ، وجهده الكبير في تكوين
هذه الدولة .

ولكن أبا العباس حينما همَّ بأبي سلمة قال له داود بن علي : لا آمن
عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ؛ ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان

(١) الطبري ٩ : ١٢٥ ، والجهمشيارى ٨٦ — ٨٧ ، وابن الأثير ٥ : ١٥٣

من أبي سلمة ، فكاتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، ويقول له : إنني قد وهبت جرمه لك ؛ ولكن باطن الكتاب كان يفيد حث أبي مسلم على قتل أبي سلمة . فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فطن لغرض السفاح ، فوجه بالمرار بن أنس الضبي ومعه قوم من أهل خراسان لقتل أبي سلمة ؛ فلما وافى المزار ومن معه ، أمر السفاح منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبي سلمة ؛ ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع عليه ، ثم دعاه في الليلة التالية فسهر معه عامة ليله ، ثم انصرف إلى منزله ، فاعترضه المزار بن أنس وأصحابه فقتلوه ، وأغلقت أبواب المدينة ، وقيل لأبي العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج . فقال : لليدين وللهم (١) .

وكان مقتل أبي سلمة في رجب سنة ١٣٢ هـ (٢) .

بقيت لي كلمة عن ذلك الموضوع ننصف بها بالقول ذلك الرجل الذي غدر به ، والذي شاء له الخليفة أن ينكب على وجهه فلا يفيق ، وأنا لا أقصد بهذه الكلمة الدفاع عن أبي سلمة ، ولكنه عرض هادى أعتقد أنه عادل مستقيم .

من الواضح أنه لم يثبت بشكل قاطع أن أبا سلمة كتب للعلويين

(١) دعاء بالسوء . ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفه .

(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهمياري : الوزراء والكتاب ص ٩٠

ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٦٣ - ١٦٤

ابن خلكان : الوفيات ١ : ١٦٣ ، ابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦

ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٣

يستند عليهم ليسند إليهم الخلافة، وقد جاء في رواية ابن خلكان (١) ما يوحى بالتشكيك في هذه القضية فقد قال : « إن القوم توهموا من أبي سلمة أنه مال إلى العلويين » .

وشىء آخر ؛ ألا يُحتمل أن يكون أبو سلمة وقع في هذا لأنه كان قد خدع في فهم دعوة الحزبية ، التي كانت تسير باسم الرضا من آل محمد ، كما كان زعماء الحزبية أنفسهم يعلنون ذلك ؟ فلما نجحت الدعوة وجد أبو سلمة - وهو وزير آل محمد - أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهداه تفكيره إلى أن العلويين أولى بهذه الدعوة من سواهم ؛ إذ قامت الدعوة الجديدة باسمهم واستغلت رفاتهم وضحاياهم ، ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بني العباس .

وإذا كان أبو سلمة قد أخطأ في هذا التصرف أما كان يشفع له جهاده الطويل وكفاحه المرير وثروته العريضة التي أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها ؟ وبخاصة أنه لم يُخش منه تحول بعد ذلك ؟ ولا خيف منه رجوع إلى العلويين . دليل مارواه ابن خلكان (٢) من أنه كان صفيّ أبي العباس وكان هذا يأنس به . وإذا كان أبو العباس ينوى قتله ، فلماذا يوثق على نفسه اليهود ، ويخلع عليه ، ويدع منادياً ينادى أن أمير المؤمنين راض عنه ؟ مع أنه لو قتله بدون ذلك ، وادعى أن الخوارج قتلوه كما فعل ، ما تغير في الوضع شيء ، وبخاصة بعد أن دبر ذلك أبو مسلم الخراساني .

إن الاستهانة باليهود كانت كما وضع وكما سيتضح مما يلي ، شائعة من شيم أكثر خلفاء هذا العصر .

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٦٣

(٢) المرجع السابق

يزيد بن عمر بن هبيرة :

بطل من أبطال العرب ، ودعامة من دعائم الخلافة الأموية ، كان كما يقول ابن قتيبة (١) أحد القواد القلائل الذين جُمع تحت أمرهم العراق (الكوفة والبصرة) ، وكان يزيد شيخاً جسيماً طويلاً خطيباً شجاعاً ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ، ولم يثنه عن مداومة العداء إلا قتل مروان بن محمد وانتهاء ملك الأمويين ، وهكذا كانت واسط التي تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عزّ على العباسيين تسوّرهُ ، وما دخلوه إلا صلحاً (٢) ولنعُد إلى المسألة بشيء من التفصيل :

لما دخل أبو مسلم الخراساني مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠ هـ أقام بها ووجه قحطبة بن شبيب الطائي - وكان قد وفد عليه حديثاً من قبل ابراهيم الإمام - في جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيباني أحد الأبطال العرب الذين كانوا في ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته في الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين حتى لحق ابن هبيرة بمدينة واسط ، وحصن بها تحصناً محكماً ، استمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، أتاهم به اسماعيل بن عبد الله القسريّ وقال لهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ إلى الصلح (٣).

(١) المعارف ص ٢٤٩

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ابن الأثير ٥ : ١٦٤ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

أما عن جيش العباسيين فإنه بعد مقتل قحطبة وقيام ابنه مكانه ، رأى أبو العباس أن يدعم ذلك الجيش لعله يستطيع أن يقضى على ابن هبيرة ، الذى كان شوكة في ظهورهم ، فأرسل أخاه المنصور لمعاونة الحسن ، وكتب إلى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولست أكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ؛ فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور (١) .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب ، كما يش ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ونشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أماناً ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أخيه السفاح ، فأمر بإمضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر ولى أمر المسلمين ، يزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين ، ومن معهم من وزراءهم ؛ إني أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سراير العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، وإليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذرائكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنتته في أعلى كتاب هذا الوفاء بما جعلت

(١) المرجع السابق .

لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله^(١) وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العباد نقضها ، ولا تعطيلُ شيء منها ، ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجلال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيماً لها ، وبها حققت الدمام وذمة روح الله وكنسته عيسى بن مريم ، وذمة إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وأعظيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ، ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استئجارى فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله وبأمر المؤمنين فيما سلم منه ورضى به ، وجعلته لك ولمن معك على نفسه ، ولك على الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرمة ، وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد (ص) ، فإنه جعله كتاباً مبيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه . وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسه ، وتوكيدى فما ، وعلى تسليمى لك ما سألت ، لا يغادر منها شيء ، ولا ينكث عليك فيها . وأدخلت فى أمانك هذا جميع من قبلى من أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمر المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة وجعلت لك ألا ترى منى انقباضاً ، ولا مجانبية ، ولا ازوراراً ، ولا شيئاً تسكره فى دخولك على إلى مفارقتك إياى ، ولا ينال أحداً معك أمره يكرهه ، وأذنت لك ولهم

(١) معطوف على قوله فيما سبق « من عهد الله وميثاقه »

في المسير والمقام ، وجعلت لهم أماناً صحيحاً ، وعمداً وثيقاً ، وأن عبد الله ابن محمد [يعني نفسه] إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا ، فتسكت أو غدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين في سر أو علانية ، أو أضمر لك في نفسه غير ما ظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً في أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماس الخديعة والمكر بك ، وإدخال المكره عليك ، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به ، فلا قبيل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، وهو برىء من محمد بن علي ، وهو يخلف أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حجةً يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكة حافياً راجلاً ، وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجةً [سنة] بشراء أو هبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وكّد وجعل على نفسه في هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً ، (١) .

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتته كله ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يدع ثغرة للغدر وعدم الوفاء ؛ فهل وفّى العباسيون بما عاهدوا الله عليه ؟ سنرى .

لما تم كتاب الأمان خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج ، وظل يتردد عليه يوماً بعد يوم في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ،

(١) ابن قتيبة : الأمانة والسياسة ٢ : ١٦٣ — ١٦٦

فَقِيلَ لِأَبِي جَعْفَرٍ : إِنَّ أَبَا هُبَيْرَةَ يَأْتِي فَيَتَضَمَّعُ لَهُ الْعَسْكَرُ ، وَمَا نَقْصٌ مِنْ سُلْطَانِهِ شَيْءٌ ، فَأَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَلَا يَأْتِيَ إِلَّا فِي حَاشِيَتِهِ ، فَكَانَ يَأْتِي فِي ثَلَاثِينَ ، ثُمَّ صَارَ يَأْتِي فِي ثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ (١) . وَكَلَّمَ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْمَنْصُورَ أَوَّلَ مَا انْصَلَّ بِهِ فَقَالَ : إِنَّ دَوْلَتَكُمْ هَذِهِ جَدِيدَةٌ ، فَأَذِيقُوا النَّاسَ حَالَوَتَهَا ، وَجَنِّبُوهُمْ مَرَارَتَهَا ، لِتُسْرِعَ مَحَبَّتُكُمْ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، وَيَعْذِبَ ذِكْرُكُمْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَمَا ذَلْتُ مُتَنَظِّرًا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ، فَأَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ بِرَفْعِ السِّتْرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ . فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ وَبَاسِطِهِ بِالْقَوْلِ حَتَّى اطمأن قلبه ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ لِأَصْحَابِهِ : عَجَبًا لِمَنْ يَأْمُرُنِي بِقَتْلِ مِثْلِ هَذَا . (٢)

وَلَكِنْ دَوَاعِي الْغَدْرِ تَكَاثَرَتْ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ فَاسْتَجَابَ لَهَا ، وَتَحَرَّكَ فِيهِ مَيُولُهُ بِعَدَمِ الْحَرَصِ عَلَى الْعَهْدِ ، وَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِي أَوَّلَ وَأَهَمِّ مَنْ أَشَارَ بِقَتْلِ أَبِي هُبَيْرَةَ ، فَقَدْ كَتَبَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ يَقُولُ : « إِنَّهُ قَلَّ طَرِيقٌ سَهْلٌ تَلْقَى فِيهِ حِجَازَةٌ إِلَّا ضَرَّ ذَلِكَ بِأَهْلِهِ ، لَا وَاللَّهِ لَا يَصْلُحُ طَرِيقٌ فِيهِ ابْنُ هُبَيْرَةَ » فَكَتَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ بِأَمْرِهِ بِقَتْلِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ الْمَنْصُورُ إِلَيْهِ « لَا أَفْعَلْ وَلَهُ فِي عُنُقِي بَيْعَةٌ وَأَيْمَانٌ » فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ « وَاللَّهِ لَتَقْتُلَنَّهُ أَوْ لِأَبْعَثَنَّ إِلَيْكَ مَنْ يَخْرِجُهُ مِنْ عِنْدِكَ وَيَتَوَلَّى ذَلِكَ عَنْكَ » (٣) . وَإِذَا ذَلِكَ الْإِصْرَارُ نَزَلَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَى رَأْيِ السَّفَّاحِ وَرَأَى أَبِي مُسْلِمٍ وَدَبَّرَ مَوَازِمَةً لِلْقَضَاءِ عَلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ ، الَّذِي كَانَ كُلُّ ذَنْبِهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْنُ خَلِيفَتَهُ ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ بِسَهْوَةٍ أَمَامَ

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٩٣ : ١ طبعة لجنة التأليف ، والمبرد : الكامل ١ : ١٤٤

(٣) الإمامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨

جيوش العباسيين الزاحفة ، وقد وصف ابن الأثير (١) وابن خلكان (٢) هذه المؤامرة التي حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهذا موجز لها :

بعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال في واسط ، ثم بعث إلى وجوه مَن مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضروهم ، فأقبل محمد بن نباتة ، وحوثر بن سهيل في اثنين وعشرين رجلا ، فخرج حاجب أبي جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثر فأدخلا حجرة دون حجرة أبي جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله ، فلما دخل ابن نباتة وحوثر نزعَت سيوفهما وكَتَفَا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا إلى أن نزعَت سيوف الجميع وكَتَفُوا فقال أحدهم : أعطيتمونا الأمان ثم خنتم . إنا لنرجو أن يدمركم الله ؛ وقال آخر : كأني كنت أنظر إلى هذا ؛ ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحوًا من مائة من أشداء رجاله إلى ابن هبيرة بحجة أنهم يريدون نقل خزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فداسهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدءوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة نظرهم وقال : أقسم بالله إن في وجوه القوم لشرا ، وكان معه ابنه داود ، وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبه ، وعدة من مواليه ، وابن له صغير في حجره ، فأقبل رسل أبي جعفر نحوه ، فقام حاجبه في وجوهم ، فضربه أحدهم ضربة صرخته ، وقاتل ابنه داود فقتل ، وقتل الموالى . ونجى ابن هبيرة الصغير من حجره ، وخرَّ ساجدا ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا

(١) ١٦٦ : ٥

٣ : ٢

برعوسهم إلى أبي جعفر ؛ وهكذا كانت النهاية الأليمة لهذه الطائفة من صناديد العرب وأبطالها .

عبد الله بن علي :

سبق أن تحدثنا عن عبد الله بن علي وهزيمته أمام أبي مسلم الخراساني في مطلع عهد المنصور بعد حرب ظلت خمسة شهور ، وقلنا إنه هرب في الموقعة الأخيرة ، ولجأ إلى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى ، فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل إلى سليمان وعيسى في إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما ، واتفقا على أن يكتبوا له أمانا من المنصور ، وكان عبد الله بن المقفع يعمل كاتباً لعيسى ابن علي فطلب إليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب^ة إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط توکید ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلي فقرات من هذا الكتاب الطويل :

« وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً من أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الخيل ، فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة [أي ولد سفاح وزني] ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبرامة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي ، وإعانة من ناواني من جميع الخلق ، ولا موالاته بيني وبين أحد من المسلمين ، وأنا

متبرئ من الحول والقوة ، ومُدَّعٍ ، وكافر بجميع الأديان ، ألقى ربي
على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب
والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطي ،
ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به (١) .

فوقع المنصور الكتاب وأرسله إلى عمه عيسى قائلاً ، إذا وقعت عيني
عليه فهذا الأمان له ، لأنني لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتي له ، فيسير
في البلاد ، ويسعى على الفساد ، فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده
ومواليه على المنصور في ذي الحجة سنة ١٣٩ هـ ، فلما قدموا عليه أذن
لسليمان وعيسى فدخلوا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له ؛
فشغلها بالحدِيث ، وكان قد هيا لعبد الله مكاناً في قصره ، وأمر به أن
يصرف إليه بعد دخول سليمان وعيسى ففعل به ذلك ، ثم نهض المنصور
وقال لسليمان وعيسى : خذوا عبد الله معكما . فلما خرجا لم يجدا عبد الله ،
فعلما أنه قد ألقى القبض عليه ، فرجعا إلى المنصور فمُسْنَعَا عنه ، وأخذت
عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ، ثم أمر المنصور بقتل
بعضهم بحضرته ، وبعث الباقي إلى أبي داود خالد بن إبراهيم بخراسان
فقتلهم بها (٢) .

أما عبد الله فقد ظل في الحبس حتى سنة ١٤٧ هـ وقد أراد المنصور
أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدي العهد وتقديمه إياه على عيسى بن موسى ،
ولكن المنصور كان يتوق إلى أن يتخلص نهائياً من عمه عبد الله بن علي ،

(١) الجهمشباري : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٨٥

ويُرد لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة فيتخلص في الوقت نفسه من
ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكذا دبر المنصور المؤامرة التي يحكيها لنا
الجهشياري ^(١) ، وابن الأثير ^(٢) كما يلي .

دفع المنصور عمه عبد الله بن علي إلى عيسى وأمره سرّاً بقتله ، وقال
له : إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي ، فاضرب عنقه ، وإياك أن
تضعف فتنتقض عليّ أمري الذي دبرته ؛ ثم مضى إلى مكة ، وكتب إلى
عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل في الأمر الذي أمره به ، فكتب عيسى
في الجواب : قد أنفذت ما أمرت به ؛ فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى
حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتّابه وأخبره الخبر ، فقال
الكتّاب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سرّاً ، ثم يدعيه عليك
علانية ، فلا تقتله ، واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك ؛ فلما قدم المنصور ،
أوعز إلى أعمامه من يحركهم على الشفاعة في أخيه عبد الله ، ففعلوا
وشفعوا ، فشفعهم ، وقال لعيسى في حضرتهم : إني كنت دفعت إليك عي
وعمك عبد الله ليكون في منزلك ، وقد كلمني عمومك فيه ، وقد صفحت
عنه فأتنا به ؛ قال يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ،
قال : بلى أمرتني ، قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذبت . ثم قال المنصور
لعمومته : إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم ، قالوا : فادفعه إلينا للقتل ، فسلمه إليهم ،
وخرجوا به إلى الرحبة ، واجتمع الناس ، وشهر الأمر ، وقام أحدهم
ليقتله ، فقال عيسى : أفاعل أنت ، قال : إي والله . قال : ردوني إلى أمير

(١) الوزراء والكتّاب ص ١٣٠

(٢) الكامل في التاريخ ٥ : ٢١٥ — ٢١٦

المؤمنين ، فردوه إليه، فقال له : إنما أردت أن أقتله لتقتلني ، هذا عمك
حتى سوى ، قال اتنا به ، فأناه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي . ثم
انصرف الجمع .

وإذا خفقت هذه المؤامرة، أعمل المنصور فكره لينجح في مؤامرة أخرى،
فدفع عبد الله بن علي إلى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده
محبوساً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبد الله
نخقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت :
يا عبد الله ، قتلة غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : ماجزعت لأحد قتلتها
غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبد الله ، وأدخلت يده
تحت جنبها ، ويدها تحت جنبه كالمعتقين ، ثم أحضر القاضي ابن علام
وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية على تلك الحال فاستحقا بذلك الرجم ،
فأمر بالبيت فهدم عليهما (١) .

وقيل في قتله : إن المنصور جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء
في أساسه فسقط عليه فمات (٢) .

وهكذا قضى عبد الله . لم يغن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين
الدولة ، ولا وقوفه في وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب
الآمان المحكم ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبد الله
سنة ١٣٦ هـ وبين مقتله سنة ١٤٧ هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩ هـ كرواية
الطبري ، لم تستطع أن تخفف من حنق المنصور عليه ، أو بغضه له ، ويحق

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٤٤

(٢) ابن الأثير : ٥ : ٢١٦

الإيمان أن يتساءل : ما كان ضرر المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلعت أظفاره ،
كما عفا المأمون عن إبراهيم بن المهدي ، والفضل بن الربيع ^(١) .

أبو مسلم الخراساني :

يقترن اسم أبي مسلم الخراساني بالانتصارات التي أحرزها العباسيون ،
أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان
بنو العباس يستمتعون بهدوء الخيمة ، وصفاء العيش فيها كان أبو مسلم يحمل
العبء كله في خراسان ، لقد زوده إبراهيم الإمام حين أرسله إلى خراسان
ببعض النصائح وبعث له براية النصر ، ولكنه لم يزوده بالمال ، ولم يرسل له
فيالق الجنود ، بل ترك الأمر إلى أبي مسلم ، ليجمع حوله الجند ،
وتكاليف الكفاح .

وكانت في أبي مسلم ملامح النجاة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل
هذا لم يفارقه قط طيلة المدة التي لمع فيها اسمه ، وكان اسم أبي مسلم معروفاً
في العام الإسلامي بأسره ، في المدة بين ١٢٨ و ١٣٢ هـ حينما كان إبراهيم
الإمام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم في الخيمة ،
وبقي أبو مسلم بعد سنة ١٣٢ هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهو يحبط كل مؤامرة
تثور في وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحصار ابن هبيرة ، وتحارب
عبد الله بن علي ويُساقى به كلها حزب أمر ، أو هبت عاصفة .

فالفتك بأبي مسلم بعد هذا ، وبدون جريرة تستأمله ، أمر لا يقره
الاسلام الخفيف ، ولا تجيزه شرعة الأخلاق إن أجازته شرعة السياسة ؛
ولنعد إلى المسألة بشئ من التفصيل :

(١) إقرأ عن هذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخرى : ص ١٤٤ وما بعدها ،
وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٥

طفولة أبي مسلم قد اختلفت فيها الآراء (١) . ولعل من أوضحها أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذي سبق الحديث عنه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصول النشيع ، ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه إبراهيم ، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشسباب ، وكانت الشيعة بخراسان في حاجة إلى مثله ليشرعوا في العمل ، فاختره إبراهيم لتلك المهمة ، وأرسله إلى خراسان وأوصاه (٢) .

ونزل أبو مسلم خراسان ليجد نفسه أمام بطل من أبطال العرب ، هو نصر بن سيار ، ومعه الجند والمال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذي سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبي مسلم تتبع فلول الأمويين ، وتهاجم العراق ؛ حتى كتب لها النصر هنا ، كما كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيوراً على الدعوة مخلصاً لها الإخلاص كله ، حتى لقد دبر قتل أبي سلية الخلال حينما اتهم هذا بالميل للعلويين ، مع ما بين الاثنين من صلة الصداقة والرحم (٣) . وحينما اتهم سليمان بن كثير بأنه قال لأحد العلويين : « إذا شئت فادعونا إلى ما تريدون ، لم يتردد أبو مسلم أن يستدعي سليمان ، ويسأله : أتخفظ قول الإمام لي « ومن اتهمته فأقله » ؟ فأجاب سليمان : نعم . قال أبو مسلم : فإنني أتهمك . قال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تناشدني ، فإنك منطوي على غش الإمام ؛ وقتلته (٤) .

(١) انظر في ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) الحضري . محاضرات تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨

(٣) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢ : ١٦١

وهكذا كان موقف أبي مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، لا يكاد الانسان يجد فيه شيئاً من المروق أو التمرد ، وكل ما يمكن استنباطه هو أن أبا مسلم كان مسروراً بالنصر الذي أحرزه ، فبدأ منه شيء من الاغتياب أو التيه ، وأن الخلفاء العباسيين كانوا يخشون أن ينقلب عليهم أبو مسلم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معه المال والرجال . وكان المنصور أكثر العباسيين حقداً على أبي مسلم ، وكراهية له ، أما أسباب هذه الكراهية ، ودواعي ذلك الحقد ، فلا شيء فيما أظن سوى التنافس وخوف المروق . سأل أبو جعفر سالم ابن قتيبة : ماترى في أبي مسلم ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا »^(١) قال المنصور : حسبك الله أبا أمية . لقد أودعتها أذنا واعية^(٢) .

وقد تزعم المنصور - منذ كان ولياً للعهد - حركه خفية ترمى إلى الايقاع بأبي مسلم والفتك به^(٣) . وبخاصة بعد أن زار خراسان ، ورأى بنفسه نفوذ أبي مسلم هناك ، فعاد يقول للسفاح : لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً .^(٤) وفي سنة ١٣٦ هـ استأذن أبو مسلم السفاح في القدوم عليه للحج ،

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٢

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ . ابن خلكان ١ : ٢٨٢

(٣) ويبدو أنه من الأسباب التي دعت المنصور وهو ولي للعهد أن ينفذ أبا مسلم ويكيد له ، أن المنصور كان يتوقع أن يحمله أبو مسلم ويكبره إبان حياة السفاح ، ولكن أبا مسلم كان يتجسس بالإجلال والإكبار إلى الإمام فقط ، ويترفع بنفسه عن أن ينحني لسواه ، وسترده في هذا البحث أمثلة تؤيد هذا الاتجاه في أبي مسلم ونزید هنا ما رواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبا مسلم دخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم على أبي العباس ، فقال له : يا أبا مسلم ، هذا أبو جعفر : فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين . هذا موضع لا يؤدي فيه إلا حقاك .

(٤) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤

وكان منذ ولي خراسان لم يفارقها ، فأذن له في القدوم مع خمسمائة من الجند ، فكتب إليه أبو مسلم : إني قد وترت الناس ولست آمن على نفسي ؛ فكتب إليه أن : أقبل في ألف ، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمل العسكر ، وأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه ، فجاء أبو مسلم ودخل على السفاح فأكرمه وعظمه (١) .

وقد انتهز المنصور فرصة بسعد أبي مسلم عن خراسان ووجوده في عاصمة الخلافة في جند قليان ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ، أطعني ، واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغدرة ، وحاول السفاح أن يثنى أخاه عن ذلك قائلاً له : يا أخى قد عرفت بلاءه وما كان منه ، ولكن المنصور أجاب : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعث سنورا لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ في هذه الدولة ، وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ، فسأل المنصور : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ، وأقبل عليك . دخلت فتغلطته ، فضربته من خلفه ضربة أثبت بها على نفسه ؛ فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم وديارهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا ؛ ولكن التردد غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كففت عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتم : أخاف والله إن لم تتخذ به اليوم أن يتعشى بك غدا . فاستسلم أبو العباس وقال : دونك فأنت أعلم . وبينما يستعد المنصور لهذا الأمر كان أبو العباس يراود نفسه ؛

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١٧٩

فرجع عن موافقة المنصور، وبعث إليه ألا ينفذ الأمر الذي عزم عليه (١)
وإذا كانت هناك بقيمة من الوفاء في نفس السفاح حالت دون الفتك
بأبي مسلم، فإن أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح، وتضييقه عليه، ومحاولة
الحد من نفوذه وسلطانه، وقد رأينا كيف أنه حدد لأبي مسلم عدد الجند
الذين يقدم فيهم، ليقلل من جلال موكبه، وليزيل عظمة ركبته، وحينما
استأذن أبو مسلم السفاح في القدوم عليه للحج، وأذن السفاح له، أدرك
الخليفة أن من الطبيعي أن يكون أبو مسلم أمير الحج في ذلك العام،
ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف، فكتب إلى أخيه المنصور - وكان
أميراً على الجزيرة وأرمينية واذريجان - يقول: «إن أبا مسلم كتب إلى
يستأذن في الحج، وقد أذنت له، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيألني أن أوليه
إقامة الحج للناس، فكتب لي تستأذني في الحج، فإنك إذا كنت بمكة
لم يطمع أن يتقدمك، فكتب أبو جعفر يستأذن في الحج، فأذن له،
فوافي الأنبار.

واجتمع بالأنبار العدوان اللدودان فحرت محاولات أبي جعفر سالفه
الذكر، ولسكنها لم تنجح، وحينما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبي
مسلم: لولا أن أبا جعفر حاج لوليتك الموسم؛ ويهمس أبو مسلم معلقاً على
هذا بقوله: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا؟ (٢)
ويذهب الفارسان العظيمان للحج، ويتباريان في الإعطاء والسخاء،
ويحتفي الحجاج بهذا أو ذاك. فتزيد الهوة بين الاثنين.
وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم في الحجاز، ورد الخبر بوفاة السفاح

(١) الطبري: ٩ : ١٥٣ ، الإمامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الأثير ٥ : ١٧١ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٥ .

وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور موقفاً رائعاً كان من الواجب أن يرجح كل ما عُدد عليه من هفوات ، وما يمكن أن يكون قد ارتكبه من ذنوب (١) .

يروى ابن الأثير (٢) أن المنصور حينما بلغته وفاة السفاح والبيعة له كتب إلى أبي مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم إليه ، فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ، ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ قال أتخوف شر عبيد الله وشغبه على ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عاة جنده ومن معه من خراسان ، وهم لا يعصونني فسرّني عن أبي جعفر . وفي رواية أخرى لابن الأثير أيضاً (٣) : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب إليه : عافك الله ومتع بك ، إنه أناني أمر قطعني ، وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه مني شيء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فلما سأله الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهالك أحد أشد تعظيماً لحقك ، وأصفي نصيحة وحرصاً على ما يسرك مني . ويسوق ابن الأثير أيضاً (٤) : وابن طباطبا (٥) : رواية تدل على استعداد أبي مسلم للفناء في خدمة المنصور ، وهاك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئت جمعت

(١) سترد فيما بعد ذنوب أبي مسلم كما يعددها المنصور وهو يحاسبه قبيل الفتنك به

(٢) السكامل في التاريخ ٥ : ١٧٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣

(٥) الفخرى ص ١٤٤

ثِيَابِي فِي مَنَاطِقِي وَخَدَمْتُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَتَيْتُ خِرَاسَانَ فَأَمَدَدْتُكَ
بِالْجُنُودِ ، وَإِنْ شِئْتَ سَرْتُ إِلَى حَرْبِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ فَأَمْرُهُ الْمَنْصُورُ بِالْمَسِيرِ
لِحَرْبِ عَبْدِ اللَّهِ

وَلَبَّى أَبُو مُسْلِمٍ الْأَمْرَ وَزَحَفَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ كَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ . وَاسْتَطَاعَ
أَبُو مُسْلِمٍ أَنْ يَثْبُتَ الْعَرْشَ الَّذِي شِئِدَهُ ، وَأَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى أَعْدَاءِ
الْخُلَيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ .

وَمَا أَنْ انْتَهَتْ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ بِفَضْلِ أَبِي مُسْلِمٍ حَتَّى أَسْفَرَ الْمَنْصُورُ عَنْ
عِدَائِهِ إِلَيْهِ ، وَوَجَدَ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً ؛ فَقَدْ مَاتَ السَّفَاحُ الَّذِي كَانَ دُرْعًا لَهُ ،
ثُمَّ إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ بَعِيدَ عَنْ خِرَاسَانَ عَرِينَهُ الْحَصِينَ ، فَصَمَّمَهُ أَبُو جَعْفَرٍ أَلَّا يَدْعُ
أَبَا مُسْلِمٍ يَهْجُو إِلَى ذَلِكَ الْعَرِينِ ، وَامْرَأَتُ الْأَحْدَاثِ سَرَاعًا عَلَى النُّجُوحِ التَّالِي :
لَمَّا ظَفَرَ أَبُو مُسْلِمٍ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، بَعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ
أَبَا الْخَصِيبِ ، لِيَكْتُبَ مَا أَصَابَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنَ الْأَمْوَالِ فَهَمَّ أَبُو مُسْلِمٍ بِقَتْلِهِ ،
وَقَالَ : أَمِينَ عَلَى الدِّمَاءِ ، خَائِنٌ فِي الْأَمْوَالِ ؟ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو مُسْلِمٍ فِي
أَبِي الْخَصِيبِ . وَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ ، نَفَلَتْ سَبِيلُهُ ، فَارْجِعْ إِلَى
أَبِي جَعْفَرٍ فَأَخْبِرْهُ بِمَا كَانَ (١) .

ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ الْوَحْشَةُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ ، وَحَرَصَ الْمَنْصُورُ عَلَى مَنَعِهِ مِنْ
الرَّجُوعِ إِلَى خِرَاسَانَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا مَعَ يَقُطِينَ بْنِ مُوسَى يَقُولُ فِيهِ :
قَدْ وَلَيْتُكَ مِصْرَ وَالشَّامَ ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ خِرَاسَانَ ، فَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ مِنْ
أَحْبَبَتْ ، وَأَقِمَّ بِالشَّامِ لِتَكُونَ بِقَرَبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ أَحَبَّ لِقَاءُكَ أَتَيْتَهُ

(١) ابْنُ الْأَثِيرِ ٥ : ١٧٥

من قريب . فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يوليني الشام ، وخراسان لي ؟ فكتب الرسول إلى أبي جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمهاً على الخلاف ، وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه ، فاستشار أبو مسلم بعض خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم : « إنه لم يبق لأمر المؤمنين - أكرمه الله - عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء ، فمن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريثون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى » (١) .

وهكذا أسفر العداوة ووضح البغض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبي مسلم منه ، ووصوله إلى خراسان ، سيكون صدعاً للدولة ، وربما كان قضاءً عليها ؛ فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبي مسلم وبين خراسان . والحقيقة أن هذا كان امتحاناً قاسياً مرّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل له كل السبل التي كانت بين يديه :

فأولاً - أرسل إلى أبي مسلم كتاباً يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشقة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فلم سوّيت نفسك

(١) الطبري ٩ : ١٦١ وابن الأثير ٥ : ١٧٤ - ١٢٥

هم؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعت بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريطة التي اشترطتها سماع منك ولا طاعة ، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يُفسد به نيتك أو كد عنده وأقرب من طبعه من الباب الذي فتحه عليك .

وثانياً : طلب المنصور من عمه موسى بن علي ومن حضر من بني هاشم أن يكتبوا إلى أبي مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ، ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغي ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وثالثاً : لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار أبي مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبي جعفر ، ونزولاً على إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل له أبو حميد المروزي وقال له : كلم أبا مسلم بألين كلام ؛ آمنه ، وأعلمه أني رافعه ، وصانع به من الخير ما لم يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبي أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست من العباس ، وإنى برىء من محمد ، إن مضيت مشاقاً ولم تأتني ، إن وكلتُ أمرَك إلى أحد سواي ، أو لم اقاتلك بنفسي ، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك . فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللطف واستعمل فيها أسلوباً رقيقاً عذباً وأفسح لأبي مسلم من الآمال ، ورسم له صورة رائعة للمستقبل ،

ولكن أبا مسلم لم يقبل ، فلما ينس أبو حميد ألقى بالرسالة الأخرى وحذر ،
فاضطربت لها نفس أبي مسلم .

ورابعاً : أرسل أبو جعفر إلى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان
كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انخيازه إلى الخلافة وكان في الكتاب : إن
لك إمرة خراسان ما بقيت ، وقد سُرَّ أبو داود بهذا المنصب الخطير
فكتب إلى أبي مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه
صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه .

وخامساً : أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ، ومن
هوى الهاشمين نحوه ، فأرسل أحد أصفياه ، واسمه أبو إسحاق ، فلما قدم
هذا أحسن بنو هاشم استقباله وأجازه المنصور ، وقال له : اصرفه عن وجهه
ولك ولاية خراسان ، فرجع أبو إسحاق وخذع أبا مسلم ، وقال له :
ما أنكرت منهم شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم
وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان (١) .

وهكذا سُدَّت كل الطرق في وجه أبي مسلم وجازت عليه الحيلة ، فلم
يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم في الطريق إليه ، خوفاً من أن
يتردد فيعود إلى الترد ، فترى الخليفة يوعز إلى أبي أيوب المورياني أن
يرسل إلى أبي مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ما وراء
بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، ويبلغه هذا لا على أنه رسالة ، وإنما على أنه
شيء عرفه فسارع من نفسه ليبلغه ، طمعا في أن يكافئه على هذه البشري

(١) الطبري ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧

عندما تصير له الأمور . (١) وحين اقترب أبو مسلم من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بتلقيه والاحتفاء به ، فيتلقاه بنو هاشم وعيون الناس مرحبين مستبشرين (٢) .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا استقبالا حسنا ، وقبل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف ليرتج عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن . . وقد تمكن المنصور من أبي مسلم كان من الممكن أن يفتك به بصور شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل للفتك بأبي مسلم لو ناخضا في التاريخ ؛ فقد استدعى المنصور أبا مسلم في اليوم التالي لوصوله ، وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً على العموم لم يبرز خطرهما ، ولم يبين أهميتهما . وتمتاز هذه المحاكمة بشيئين هامين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور كان قد دعا عثمان بن نهيك . وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح ، وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه .

وجرت المحاكمة ، وكُشف القناع عن تهم أبي مسلم على النحو التالي :
المنصور : أخبرني عن سيفين لعبد الله بن عليّ أصابتهما .

(١) الجهنيارى ص ١١٢ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٧ .

المتهم : هذا أحدهما ، وانتضاه أبو مسلم ، وناولته المنصور فقلّبه وهزه ، ثم وضعه تحت فراشه .

المنصور : كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات ، كأنك أردت أن تعلمنا الدين .

المتهم : ظننت أنه لا يحل ، فلما أتاني كتابه اقتديت برأيه .

المنصور : أخبرني عن تقدمك إياي بطريق مكة .

المتهم : كرهت اجتماعنا على الماء . فيضر ذلك بالناس .

المنصور : لجارية عبد الله بن علي ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟

المتهم : لا ، إنما وكلت بها من يحفظها .

المنصور : فراغمتك ، ومسيرك إلى خراسان ؟

المتهم : خشيت منك ، فقلت آتي خراسان ، وأكتب بعذري ، فأذهب ما في نفسك .

المنصور : فالمال الذي جمعته بحرّان ؟

المتهم : أنفقته في الجند تقوية لكم .

المنصور : ألسنت الكاتب إلى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت علي ؟

وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ لقد ارتقيت - لا أم لك - مرتقى

صعبا . وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره في دعوتنا ؟

المتهم : أراد الخلاف فقتلته .

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التي تنضام أمام كفاحه من أجل

الدولة فقال : كيف يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني ؟

فأجاب المنصور : يا ابن الحبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأغشيت ، إنما

ذلك بدولتنا وريحنا . فأقبل أبو مسلم يقبل يد الخليفة ويعتذر ، ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبي مسلم وصاح :
دع هذا فإني أصبحت لا أخاف إلا الله .

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك في شعبان سنة ١٢٧ هـ وخرج الوزير فصرف الناس وقال : الأمير قاتل عند أمير المؤمنين ؛ فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ، ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبي مسلم . فقال المنصور : كان هنا . فأخذ عيسى يثنى على أبي مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله ما أعلم على وجه الأرض عدوا أعدى لكم منه ، هو ذا في البساط ، فاسترجع عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

وبما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمت أن الدين لا ينقضي	فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقي بها	أمر في الحاق من العلقم ^(١)
وبما قاله أبو دلالة في ذلك :	
أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحي	عليك بما خوفتنى الأسد الورد
أبا مسلم ما خير الله نعمة	على عبده حتى يغيرها العبد ^(٢)
وهكذا خفت ذلك الصوت الذي طالما أرعد . وانكبت ذلك الأسد	

(١) السعود . مروج الذهب ٢ : ٢٣٥ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٧ - ١٧٨ ،

وابن خلدون . العبر ٣ : ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) الأغاني ٩ : ١١٥

المنطق في أغلب الأحيان ، والله في خلقه شئون .

عبد الله بن المقفع :

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « ابن المقفع » (١) : « إن حياة أبي جعفر المنصور - وبخاصة الجانب الخفي منها - تدل دلالة واضحة على نزعتيه ، وتوضح للمؤرخين بجملاء كيف أصبحت الخلافة على أيدي العباسيين ما كما يستهان فيه بواجبات الدين والقرا به والأخلاق معاً . ولا ينظر فيه إلا للبطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير . . .

والقضاء على ابن المقفع والفتك به شيء له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى في مقطوعة أدبية رائعة قذف بها في وجه قاتله فقال : والله إنك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قُتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خالق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير (٢)

ومات ابن المقفع غدرأ كما سيأتي بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدثٌ جليل ؛ لأنه كان مثالا في الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا

(١) ص ٢٣٣

(٢) الجهمياري : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

الوفى الأمين ، خدراً وخيانة . وقد حدثنا الجهشيارى عن وفاء ذلك الرجل فقال :

طُلبَ عبدُ الحميد بن يحيى كاتبُ مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد صديقاً لابن المقفع . ففاجأهما الطالب ، وهما معاً . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا . خوفاً من أن يُنال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترققوا . فإن فى علامات ، فركّأوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات لمن وجّه بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد^(١)

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر أبو جعفر على عمارة فى وقت من الأوقات شيئاً ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع إذ ذاك بها . فكان يأنيه فيزوره ، فبينما هو ذات يوم عنده ، وركد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يهمله أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لاتصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوى ثلاثين ألف درهم ، وإنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : نحن مع حالنا فى الاضاقة والإملاق الى البيع أحوج ، وكتب إلى وكيله يبيع ضيعته والانصراف إليه ، وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله ، ومن هناك أرسل سَفْتَجَةً^(٢) إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب إليه على لسان عمارة : إني قد كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال ،

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم . كما فى

القاموس المحيط ١ : ١٩٤

وقد أنفذت إليك سَفْسَجَةً ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتي ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياح إلى ، فورد الكتاب على الوكيل فنفسد ما فيه ، وكتب إلى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة ، فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، ثم سأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، ففعل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثنا ، قال عمارة : بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل ، وكنا إليها هنا أحوج . قال : فإن عندنا فضلاً ، وبعت إليه بثلاثين ألف أخرى .^(١)

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئاً ، بل غدير به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم إن ابن المقفع رجل أديب . ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من أبي سلمة ، أو ابن هيرة ، أو أبي مسلم الخراساني . ومن هنا يتساءل الباحثون - دون جواب شاف - عن السبب الذي حدا بتدبير مؤامرة اغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه عن ابن المقفع^(٢) أن يتلصص العلة التي دعت للفنك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على أحد تعبيره ، « يزعم أن الزندقة كانت من أسباب قتل الرجل ، بل كانت السبب الذي تذرعه المنصور في قتله »^(٣) ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « وإذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ،

(١) المرجع السابق ١٠٩ - ١١٠

(٢) المرجع السابق من ص ٢٢٧ إلى ص ٢٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦

وبطريق المؤامرة ، وكان يكفي أن يتذرع المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله
جهراً ويعلم من الناس جميعاً ؟ ، ولست أدري كيف أصر حضرته على أن
ابن المقفع قتل لزندقته مع أنه لم يجب عن السؤال الذي وضعه إلا بترجيح
أن المنصور قتله صراحة ، وهو بهذا يخالف جميع المصادر التي بأيدينا .

ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين أن رسالة الصحابة (١) وحدها
كانت السبب في قتل ابن المقفع (٢) لأن ابن المقفع كتب هذه الرسالة
للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هذا النقد في صورة
بلاغية رائعة فيها إجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يخف على
المنصور ، فحنق عليه ، إذ أن الحاكم المستبد يكره النصيح ويضيق بالنقد مهما
كان رقيقاً مهذباً ، ويضيف أستاذنا الدكتور طه حسين أن هذه الرسالة كانت
برنامج ثورة .

وأيا ما كانت الأسباب فإن السبب المباشر ، وطريقة تنفيذ المؤامرة ،
يوضحها لنا كل من الجهمشيارى ، وابن خلكان وهاك خلاصة ذلك :

مر بنا أن ابن المقفع هو الذى أملى كتاب الأمان الذى أمضاه
المنصور لعبد الله بن على ، وقد سبق أن أوردنا نصه ، وظهر منه أن ابن المقفع
وكّده تأكيداً عظيماً استجابة لرأى عيسى بن على وأخيه سليمان اللذين كانا
يعرفان خلق الغدر فى ابن أخيهما المنصور ، فأرادا أن يحتاطا لأخيهما عبد الله
ابن على ، وألا يدعيا للمنصور فرصة للحنث بعهده ، فطالبوا من ابن المقفع

(١) اقرأها بجمهرة رسائل العرب التى جمعها الاستاذ أحمد زكى صفوت ج ٣ من ص ٢٥
الى ص ٤٧

(٢) انظر « من حديث الشر والنثر » ص ٤٧

مزيدا من الاحتراس والحيلة . وقد استجاب لهما ابن المقفع ، ولكنه -
والحق يقال - ارتكب الشطط في ذلك وأسف ، فما كان له أن يكتب على
لسان الخليفة عبارة مثل « وإن أنا نلت عبد الله بن علي بمكروه
فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة » [أى ولد
سفاح وزنى] فهذا ومثله مما ورد في الكتاب ، أثار حنق المنصور على
الكاتب ، فسأل : من كتب هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع ، كاتب عيسى
ابن علي . فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟ (١) .

لقد حكم المنصور بالإعدام على ابن المقفع بهذه الجملة ، فقد كان حوله
أعوان سوء ، يعرفون كيف تحقق أمثال هذه الرغبات ، وكان ضمن
حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن روقم الذي كان يعرف
أن سفيان بن معاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة (٢)
ويتمنى لو تباح له الفرصة لينتقم منه على استخفافه به واحتقاره له ، فكتب
أبو الخصيب إلى والى البصرة - وكان ابن المقفع يقيمها مع عيسى بن علي -
يخبره برغبة الخليفة ، فسُرَّ سفيان والى البصرة بهذا التفويض الذي يشفي
غلاته ، وظل ينتهن الفرصة لينفذ ما طلب منه ، وما يتوق له .

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن علي قال يوماً لابن المقفع : صر إلى
سفيان فقل له كذا وكذا ؛ فقال له : وجهه معي إبراهيم بن جبلة فأني
لا آمن سفيان . فقال : كلا ، انطلق إليه ولا تخف ، فإنه لم يكن ليعرض
لك وهو يعلم مكانك مني ، فقال ابن المقفع لإبراهيم بن جبلة : انطلق بنا

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٤

(٢) انظر صوراً منها في الحشيارى ١٠٤ - ١٠٥ ، وابن خلكان ١ : ١٥٠

إلى سفيان نبأه رسالة الأمير . فمضيا ، جلسا على باب الديوان ، وبعثا إلى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجاء الآذن وأذن لإبراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به إلى مقصورة أخرى فيها شيرويه الملاحديسي ، وعتاب الحمدي ، فأخذه فشداه كتافاً ، فقال إبراهيم لسفيان : ائذن لابن المقفع . فقال سفيان للآذن : إئذن له ، فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ؛ فقال سفيان لإبراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ، ما أشك في أنه قد غضب . ثم قام سفيان وقال لإبراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ؛ ودخل المقصورة التي فيها ابن المقفع . فقال له لما رآه : وقعت والله . فقال ابن المقفع : أنشدك الله . فقال سفيان : أمي مُغْتَلَبَةٌ كما كنت تقول ، إن لم أقتلك قَتْلَةً لم يقتل بها أحد قط . وأمر بتسوير فسُجِرَ ، ثم أمر فقصُطعت أعضاؤه عضواً عضواً وألقي في التنور ، وكان ابن المقفع وهو يُعَذَّبُ ينشد قبل أن تزهر روحه البيتين اللذين سبق إيرادهما :

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

ولما فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع إلى إبراهيم فحدثه ساعة ، ثم خرج إبراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع : ما فعل مولاي ؟ قال : ما رأيته ؛ قال . بلى قد دخل بعدك ؛ فقال : ما رأيته ؛ ورام الرجوع إلى سفيان فحجب ، وانصرف ، وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يبكي ويصيح : قَتَلَ سفيانُ مولاي (١) .

(١) الوزراء والكتاب ١٠٥ - ١٠٧

ولما عرف عيسى بن على وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان سليماً ولم يخرج منها ، ثارا وتوعدا ، وخاصما سفيان إلى المنصور ، وأحضره إليه مقيداً ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابن المقفع وقد دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ثم قال لهم : رأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت ، وأشار إلى باب خلفه ، وخاطبكم : ما تروني صانعاً بكم ؟ أقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قُتل برضا المنصور . (١)

الهادى :

ننتقل إلى مؤامرة عجيبة حدثت أيضاً في قصور الخلفاء العباسيين ، وإن النفس لتوشك أن تنتفض عند ذكرها والتفكير فيها ؛ تلك هى إعداد الخيزران مؤامرة لقتل ابنها الهادى ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الانسانية تأبى أن ترتكب أم هذا المنكر الجسيم مع ابنها ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين في التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحق في التردد ، غير أن الطبيعة الانسانية أيضاً تقرر أن نفس الانسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع .

فإذا جاز ما يذكره بعض المؤرخين من أن الهادى حاول أن يسم أمه ، كان في ذلك ما يرجح إمكان تدبير الخيزران مؤامرة للفتك بالهادى ، دفاعاً عن نفسها ، ورغبة في استعادة نفوذها الذى فقدته بسبب صرامة

(١) ابن خلكان ١ : ١٥٠

الهادي وشرامته ، ولنسق فيما يلي من المعلومات التاريخية ما يليق الضوء على هذه التيارات الخفية ، وهذه الدسائس التي وَجَدَتْ في قصر الخلافة في ذلك العهد مرعى خصباً وجواً صالحاً .

كان المهدي سمحاً ، رضى الخلق ، صفى النفس ، قطيع الحنا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء ^(١) وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجعها على التمادي ، فكانت تأمر وتنهى ، وتشفع وتبرم وتنقض . ^(٢) ويقول : Sayed Ameer Ali ^(٣) إن المهدي جعل لها السيادة عليه وعلى من في بلاطه ، فازدحم قصرها بالأمرام والعظام والطامعين في المناصب وطلاب الحاجات .

ولما مات المهدي ، وتولى الهادي الخلافة ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذها سيمتد ، وتخيلت أن الابن سيكون أكثر استجابة لها من الزوج ، وحسبت أنها ستتغلب على ذلك الشاب الحدث ، وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت مع أبيه ؛ ولكن الهادي كان يختلف اختلافاً بيننا عن المهدي ؛ لقد كان كما يقول الجاحظ ^(٤) : « شكس الأخلاق ، صعب المرام قليل الاغضاء ، سىء الظن ، وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير ^(٥) : ان المهدي مات والهادي بمرجان يحارب اهل طبرستان ،

(١) الجاحظ : التاج : ص ٣٥

(٢) الفخرى ص ١٦٧

(٣) A Short History of the Saracens p. 231.

(٤) التاج ص ٣٥

(٥) الكامل في التاريخ ٦ : ٢٩

فغضب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحيى البرمكى والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادى ، وعمل على جمع المال وتهدة الجند ، فلما علم الهادى بذلك كتب إلى الربيع يتهده بالقتل ، وكتب إلى يحيى يشكره ، ولولا حيلة اشار بها يحيى على الربيع ، لكان من المحتمل ان يوقع الهادى بالربيع .

ولسكن اولئك الذين منحوها حساسية مرهفة كحساسية يحيى بن خالد كانوا قليلين ، ومن اجل هذا بقى باب الخيزران كما كان من قبل ملجأ الوزراء ، والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادى ، وتسلك به مسلك المهدي ، حتى مضت اربعة اشهر كان الناس ينشالون إلى بابها خلالها ، وكانت المواكب تغدو وتروح إليها (١) .

واحتمل الهادى هذه الفترة بدافع البر بأمه ، ولسكن المرأة تبادت ، واوشكت ان تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه إليه ليوقعه ويمضيه فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجد ألا مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضع حد لهذا العدوان الصارخ على مسئولياته وواجباته .

وبدأ الهادى مقاومته بتأجيل النظر في طلباتها ، وعدم الاسراع في تلبية رغباتها ، سأله مرة ان يولى خاله الغطريف اليمن ؛ فوعدها بذلك ؛ ثم كتبت له يوماً رقعة تنتجز فيها امره ؛ فرد إليها رسولها يقول لها : خيريه بين اليمن وطلاق ابنته [زوجة الهادى] ، او المقام عليها دون ان يولى اليمن .

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣

فأيهما اختار فعلته ، فأخطأ الرسول في فهم كلام الهادى ، وعاد للخيزران ليقول لها : يقول لك الخليفة : اختارى له ، فظنت انه يخبرها بين ولايات متعددة فاختارت ولاية اليمن ، وأعادت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اختارت ولاية اليمن ، فنضب الهادى ، وطلق ابنة خاله ، ولما وصل خبر الطلاق بيت الهادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وخبر ان الرسول اخطأ في تبليغ الرسالة (١) .

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، واخطأها في هذه المرة التوفيق ايضاً ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهادى : اولاً - انها لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفاً لصاحب الحاجة ، وثانياً - انها لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنها تبرم رأى ايضاً فى عظام الأمور ، وثالثاً - ظهر للهادى أن صلتها ليست مقصورة على أخيها الغطريف وامثاله من محارمها ، بل تمتد إلى غيرهم من القادة والرؤساء ؛ فتحركت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على ان يثبت شخصيته ، ويسيطر وحدة على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع إلى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنها الهادى ذات يوم فى امر ، فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت : لا بد من إجابتى ؛ قال : لا افعل ؛ قالت : فإنى قد ضمننت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ؛ فنضب الهادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت انه صاحبها ، لا قضيتها لك ؛ قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ؛ قال : إذا والله لا أبالى ، وقامت مغضبة . فقال :

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ - ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣

مكانك ، فاستوعبي كلامي ، والله - وإلا كنت نفيًا من قرابتي من رسول
الله (ص) - لن بلغني أنه وقف ببابك احد من قوادي وخاصتي ، لأضربن
عنقه ، ولأقبضن ماله ، ما هذه المواقب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ اما لك
مغزل يشغلك ؟ او مصحف يذكررك ؟ او بيت يصونك ؟ إياك وإياك .
لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي . فأنصرفت وهي لا تعقل ما تطأ ، فلم تنطق بحلو
ولا مر بعدها . ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ؛ أنا وأمى أم أتم وأمهاتكم ؟
قالوا : بل أنت وأمك ؛ قال : فأياكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه ،
فيقال : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ؛ قال :
فها بالكم تأنون امي فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (١) .

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وامه ، واحست الخيزران بفراغ
كبير بعد ان جفاها الناس ، ولم يعد احد يستطيع ان يسعى إليها ، فنقمت
على ابنها ذلك وكرهته ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدت امور
اخرى تفاقم الخلاف بسببها ، وعظمت الهوة ؛ فالهادي يصر على خلع الرشيد ،
والرشيد هو الأمل الباقي للخيزران ، لأنه الابن الوديع السميع ، الذي يُرجى
ان يكون صورة من ابيه ، تستعيد الخيزران في ظله نفوذها ومكاتها
الذائلة (٢) ، وامتلأ القصر في ظل هذه الحركات بالجواسيس ؛ فللهادي
عيون على امه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعريف
الخيزران من عيونها ان الهادي يتسقط اخبارها ، ويحوطها بحصار قوى ،
وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف المتباينة ، فمرة تثور نفسها ،

(١) المسعودي . مروج الذهب ٢ : ٢٥٧ - ٢٥٨ وابن الاثير ٦ : ٣٣ - ٣٤

(٢) الفخرى ص ١٦٨

ويتجلى خوفها على الرشيد فتتمنى لو تنتقم من الهادى وتزيله من الوجود ،
ولكن كيف ، وهو ابنها وقطعة من كبدها ، فهل تقوى على ذلك ؟

ويعرف الهادى ان امه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على الا يخلع نفسه ،
فيتزايد حنقه عليها ، ويصر على ان يفعل شيئاً ، فيرسل لها طعاماً مسموماً ،
ولكنها تختبر هذا الطعام قبل ان تتناوله فتلقى بعضاً منه إلى كلب ، فيترنح ، ويهوى
لساعته ، ويسألها الهادى عن الطعام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ؛ ولكنه
يدرك انها لم تأكل منه فيقول : ما اكلت منه ، ولو فعلت لا استرحمت
منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ (١) .

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعاً عن النفس ، ويتحقق لها
أن الهادى عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر
والرحمة والحنان . فيقال : إنها أوعزت إلى بعض الجوارى فقتلنه بالجلوس
على وجهه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ،
فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) .

الفضل بن سهل :

نحن الآن أمام مؤامرة دبرها المأمون ، ومن الحق أن نقرر
أن المأمون كان لا يجب سفك الدماء ، وكان يكره الغدر ، ويميل إلى العفو
والنساح ، وأنه إن كان قد لجأ إلى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ،
فإن ظروفاً قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤

(٢) المرجع السابق ، وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨

يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفساً متعطشة للدم ، لا ، ولكن
المأمون ارتكبه ليسكن به فتنة ، ويهدى ثورة ، فلم يكن القتل هنا للتشفى
والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التي تحتّمه .

وظاهرة أخرى بدت في أعمال الفتك التي أوعز بها المأمون ، فان فتكه
كان مقصوراً على من يخشى أذاه لا يتعداه إلى أهله أو إلى مصادرة أمواله .
وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون في هذا الشأن كذلك ، وهي أنه
كان يبدو وكأن لا يدله فيما حدث ، ولا تدبير منه ، فهو لا يجاهر به بعد فعله ،
ثم كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصائب عن أهل ضحيته وذويه .

فالفرق كبير جداً بين ضحايا المأمون ، وضحايا المنصور ، لقد كان
المأمون يرعى القيم الأخلاقية ، ويحترم النفس البشرية ، أما المنصور فكثيراً
ما أهدر هذه القيم ، وازدرى تلك النفس ، وقد كان من الممكن أن ندافع
عن المنصور لو أنه ارتكب هذه الأحداث قاصداً تثبيت الدولة ، أو
حراستها ، ولكنه قتل عبد الله بن علي بعد أن تقلبت أظفاره وهدمه السجن
وقتل ابن المقفع وما كان يحمل في يده سيفاً يزعج ، ولا في رأسه ثورة
تخيف ، وإنما كان بين بنائه قلم يسطر الحكمة ، وفي عقله نور يهدي السبيل ؛
فاستحق المنصور بهذا لوم التاريخ ، والنسب العذر للمأمون فيما دبر
من مؤامرات .

ولنعد إذأ إلى الكلام عن الفضل بن سهل :

من الممكن أن نقرر بادية ذي بدم أن دولة المأمون منحة قدمها له
الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل لما كانت دولة المأمون ، ولعلّ هذا
على أمره ؛ وقد كان الفضل بن سهل - منذ عهد الرشيد - يكتب للمأمون ،

ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن المأمون حقه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لبنة وضعها الفضل ليشيد عليها دولة المأمون كانت في حياة الرشيد ، فإن خراسان لما انتقضت على الرشيد بقيادة رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة عن ردها إلى الطاعة . رأى الرشيد أن يخرج لها بنفسه فمادر الرقة [وكان الرشيد انتقل إليها من بغداد ^(١)] واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفي طريقه إلى خراسان مرّ ببغداد فاستخلف عليها ابنه محمدا الأمين ، وأمر المأمون بالبقاء معه ببغداد ، وهنا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم ؛ فسأله المأمون إشخاصه معه ، وألح ؛ فأجابه بعد امتناع . ^(٢)

وقد بدأ المأمون بهذا يفلت من استبداد الأمين ، وسطوته . وسار المأمون مع الرشيد في طريقهما إلى خراسان ، غير أن العلة استفحلت على الرشيد في أثناء رحلته ، فاضطر إلى التخليف بالطريق ، وأمر المأمون

(١) يعمل الرشيد انتقاله من بغداد إلى الرقة بقوله : والله إنى لاطوى مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنها لدار مملكة بنى العباس ، مابقوا وحافظوا عليها ، ولا رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة فيها ، ولنعم الدار هي ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الثقة والنفاق والبغض لائمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية . مع ما فيها من المارقة ، والمتلصصة ، ومخيف السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الأثير . ٦ : ٦٣)

(٢) الجهمشيارى ص ٢٦٦ وابن الأثير ٦ : ٦٨

أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره إلى خراسان ففعل ، وصحب معه كاتبه ومدير أمره الفضل بن سهل ، أما الرشيد فقد حط رحاله في طوس ، وأحس بالمرض فزاد فجدد العهد لأبنائه الثلاثة ، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون ، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود ، ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادي الفضل بن سهل على المأمون ، ولم يدخر وسعاً في نصحه والإخلاص إليه :

عندما حث قواد الرشيد وجنوده بالعهد ، ورجعوا من طوس إلى بغداد ، همّ المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشه ليردهم ، ولكن الفضل ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية لي محمد . (١) .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون ، فأخذ يعد المأمون للأمر العظيم ، ويمهد له الطريق إلى الخلافة ، فخبّيه إلى الناس ، وحبب إليه العدالة والانصاف ، وقال له : قد قرأت القرآن ، وفهمت أمر الدين ، والرأي أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السنة وأن تقعد على اللّجود ، وتواصل النظر في المظالم ، وتسكرم القواد والرؤساء وأبناء الملوك ، ففعل ذلك ، وحط عن خراسان ربع الخراج (٢) .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه ، وكانوا يقولون : ابن أختنا ،

(١) الجهمشيارى : ٢٧٧ وابن الأثير ٦ : ٧٤ .

(٢) الجهمشيارى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

وابن هم رسول الله ، ولما رأى رافع بن الليث سيرة المأمون انقاد له ،
ودخل في طاعته سنة ١٩٤ هـ فأعطاه الأمان ، فصار إليه وأكرمه
وخصَّ به (١) .

ولما اشتد الخلف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف
المأمون عاقبة ذلك فرقَّ وعزم على الاجابة إلى خلع نفسه ، ومبايعة
موسى بن الأمين ، فخلاه به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة ،
وقال له : هي في عهدي (٢) وكان مما قاله الفضل للمأمون : إن هذه الدولة
لم تكن قط أعز منها أيام المنصور ، فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ،
وقيل طلب بدم أبي مسلم ، فضعه وضع المسكر بخروجه بخراسان ، وخرج بعده
يوسف البرم وهو كافر ، فتضعه وضعوا أيضاً له ، ثم أخبرني أيها الأمير ،
كيف رأيت الناس ببغداد عند ما ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم
اضطربوا اضطراباً شديداً ؛ قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك
وبيعتك في أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن
لك الخلافة . قال المأمون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك (٣) .

وتأزمت الأمور بين الأخوين ، ولم يعد يفض الخلاف إلا السلاح ،
وحينئذ تظاهر مهارة الفضل بن سهل ، فقد أوعز إلى رجال من عيون خراسان
أن يكتبوا لعل بن عيسى بن ماهان واليهم السابق الذي عزله الرشيد لطغيانه
وجوره ، يؤكدون له أنه إن قاد جيوش الأمين فله منهم السمع والطاعة ،

(١) المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٢) الفخرى ص ١٨٩ .

(٣) ابن الأثير ٦ : ٧٤

وإن جاءهم غيره قاوموه ، فأطاع علي بن عيسى الأمين على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل حين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل إلى ذلك العين أن يحسن لابن الربيع إيفاد علي بن عيسى ويعمل ذلك بأن علياً أعرف بمسالك البلاد وحصونها ، وله صلة ببعض رجالها . ولما تحققت أمنية ابن سهل ، وعين علي بن عيسى قائد الجيش الأمين ، أشاع ابن سهل بين أهل خراسان أن الطاغية في طريقه إليهم ، وأنهم إن لم يجدوا في قتاله استئناف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فخرج القوم ليدافعوا عن أنفسهم وخرمهم (١)

أما الفضل بن سهل فقد اختار خيرة القواد لمحاربة جيوش الأمين ، اختار طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، وهما من صناديد القادة الذين لا يشق لهم غبار ، ثم هما صاحبان كياسة وبراعة في إدارة الحروب وحسن الصلة بالجنود ، اختارهما الفضل وزودهما بالرجال والعتاد وأرسلهما فكتب لهما النصر المؤزر ، وهزمت جيوش الأمين ، وحوصرت بغداد وسقطت ، وحر الخليفة الالهى صريعاً ، وانتقلت الخلافة إلى المأمون (٢) .

كل هذا جميل من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما أن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومناه ، وعظم شأنه ، يحكى ابن الأثير (٣) : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائد الأمين ، أمر المأمون أن يخطب له ويخاطب

(١) انظر ابن الأثير ٦ : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٣٢

(٢) انظر ابن الأثير ٦ : ٧٩-٨١ وابن خلدون ١ : ٤١٣ والفخرى ١٨٨ وما بعدها .

(٣) الكامل في التاريخ ٦ : ٨٥

بأمر المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعقد له على المشرق ، وجعل له عمالة
ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، ولقبه
ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل
ديوان الخراج (١) .

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزارة ، وهو أول
وزير يجمع له اللقبان . (٢)

وكتب له توقيعاً طويلاً يدل على مدى إجلاله له ، واعترافه بفضله .
وهاك نصه :

أغنيت يا فضل بن سهل بمعاوتك إياي على طاعة الله ، وإقامة
سلطاني ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطي ،
بما رأيته على نفسي ؛ وقد أقطعتك السبب بأرض العراق ، عطاء لك
ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي ، ولما قت به من حق
الله وحقى ، فلم تأخذك في لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ،
وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ،
ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزم ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ،
والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ،
وجعلته لك كفيلاً على عهدي ، وكتبت بخطي سنة ١٧٦ هـ . (٣)

وبلغ من إكرام المأمون له ، وتقريبه إليه أن عرض عليه أن يزوجه

(١) انظر كذلك الجهمشيارى ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) الجهمشيارى ص ٣٠٦

(٣) انظر الجهمشيارى ص ٣٠٦

إحدى بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى قرباهم ، وقد جهد المأمون فى إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا التكريم على نفسه . فشكر ، واعتذر . (١)

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ، حتى قتل الأمين وانتهت الخلافة إلى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه كان فى هذه المرة من جانب الوزير الذى أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنما خطر له أن يجعل هذا الملك ملكاً له ، وأن يستعيد لخراسان سلطانها وسيادتها ، فقال إلى أن يجعل للمأمون الاسم ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقاً وعراً ، كان هو فاتحه ، وكان ضحيته .

وأول ما عنى به الفضل أن يمد سلطانه إلى بغداد عاصمة الدولة ، فان خضوعها له معناه سيطرته على شئون الخلافة كلها ، ولكن كيف له أن يستبد ببغداد وفيها البطلان الفاتحان طاهر وهرثمة ، ومن أجل ذلك نجده يسارع فيسعى بالإيقاع بطاهر لدى المأمون ، فإنه ما إن قتل طاهر الأمين حتى دخل الفضل يقول للمأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيراً ، فبعث به عقيراً (٢) .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظميين عن العراق ، فأوعز إلى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن ، فاستجاب المأمون وكتب إلى طاهر وهرثمة أن يسلبا ما فى أيديهما إلى الحسن . (٣)

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٧

(٢) الجهشيارى ص ٣٠٤

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠١

ولم يكتف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهما ليشتبك كل منهما في حرب جديدة ، فوجه طاهراً لمحاربة نصر بن سيار بن شيبث ^(١) ووجه هرثمة لمحاربة أبي السرايا ، واستمر يدس عليهما لدى المأمون . فقتال عن طاهر : إنه غير جاد في محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذي أوعز لأبي السرايا في التمرّد ، وكان أبو السرايا من أتباع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم ، وعلى الرغم من هذا الدس الذي قام به الفضل فإن النصر كان حليف القائدين العظيمين في هذه المعارك الجديدة ، فقد قُتل أبو السرايا ، واستأن نصر ، واستسلم للمأمون ^(٢) .

وأدرك هرثمة ما يراد به ، وأدرك أن المأمون مغلوب على أمره ، وأن الأخبار تُحرّف عليه ، ولا تصله صحيحة ، فقرر أن يسير إلى المأمون ، فجاءته كتب الفضل في الطريق بأن يرجع للشام ، فأبى وقال : لا أرجع حتى آتي أمير المؤمنين ، وقرّر أن ينقل المأمون ما يدبره عليه الفضل بن سهل ، وما يكتّم عنه من الأخبار ، والآن يدع المأمون حتى يردّه إلى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعباد وجاء مشافاً مخالفاً ، وأنه إن أطلق كان مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلما بلغ هذا مرو نخشى أن يُكتمّ قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقت لسكى يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : ما هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق ، فراد

(١) هو نصر بن شيبب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١)

(٢) انظر بن الأثير ٦٠ : ١٠١ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها

حنق المأمون عليه ، فلما قدم ادخله المأمون وصرخ فيه : وضعت أبا السرايا
ليثور عليّ ، ومالأت أعدائي ؛ فرغب هرثمة أن يتكلم فلم يُقبل منه كلام ،
وأمر به بضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل
إليه من قبله (١) .

وحسن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل علي بن موسى الرضا ولي عهد
المسلمين ، والخليفة من بعده ، فاستجاب المأمون لذلك وأمر جنده بطرح
السواد ولبس الثياب الخضراء ، وكتب بذلك إلى الآفاق (٢) .

وقد فسرّ نعيم بن حازم هذا التصرف من الفضل بن سهل بقوله له :
إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ، ثم تحتال عليهم ،
فتصير الملك كسروياً (٣) .

كان لهذه الأعمال التي أتى بها الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من
العباسيين إلى العلويين صدى كبير في العالم الإسلامي ، ولم يطق أهل بغداد
صبراً على هذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا إلى مرو ليخبروا
المأمون بالحالة السيئة التي وصلت إليها الدولة ، والتي كانت نتيجة للسياسة
الغاشمة التي سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا أن يلاقوا نفس المآل
الذي لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ،
وخلعوا المأمون ، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، ولم يتخلف أحد

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٥

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١١

(٣) الجهمشيري ص ٣١٣

من بني هاشم عن مبايعته ، وبعد ان اخذ ابراهيم البيعة استطاع ان يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك (١) .

ولم ينقل الفضل إلى المأمون شيئاً من هذا . وإنما موّه عليه وكذبه ، وكان لا يدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمنأى عن المأمون ، وكان على الرضا بمن يدخلون على المأمون فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستر عنه من أخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبایعوه بالخلافة ، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه في هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن ابن سهل وإبراهيم . وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك إلى بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ؛ فسألهم عما أخبره به على الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ؛ فضمن لهم خطه به ، فأخبروه بالبيعة لإبراهيم بن المهدي ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السني ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان علي بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما يعلمه ، فأخرج من الأمر

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الاثير ٦ : ١١٦ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٧

كله ، وجعل في زاوية من الأرض بالرقعة ، لا يستعان به في شيء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط المُلْك (١) .

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذي نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويه الأمر وكذبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التي تسكره أن تخضع ، وتأتى أن تقنع بالاسم وتدع للخير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذي نسقه حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل إلى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، وألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هذا الحصار ، وبدأ المأمون رحلته في أوائل سنة ٢٠٢ هـ تلك الرحلة التي لها شأن كبير في التاريخ :

سار المأمون من مرو ، ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فخط الركب رحاله ، وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام في شعبان سنة ٢٠٢ هـ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيه ، وأرسل رموسهم إلى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة ، ثم استأنف الركب سيره إلى طوس فخط رحاله مرة أخرى ، وفيها مات على الرضا بفاة آخر صفر سنة ٢٠٣ هـ من غيب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والإنسان يتردد في قبول هذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربما دفعت المأمون إلى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت علي الرضا بادر فأرسل إلى بني العباس وأهل بغداد

(١) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

يقتدر من عهده إليه ويخبرهم أنه قد مات . ويدعوهم إلى الرجوع
إطاعته (١) .

واستأنف الركب سيره من طوس ، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين
أن يوافيه من الرقة ، فسار إليه مع جيش عظيم ، وفي النهروان التقى المأمون
وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول
إبراهيم بن المهدي عند ما عرفوا أن المأمون عائد إلى بغداد ، وأن الفضل
وعلياً الرضا قد قضى عليهما ، وأما إبراهيم بن المهدي فإنه لما رأى ذلك
توارى واختفى ، وسار هذا الركب العظيم إلى بغداد فدخلها في صفر سنة
٢٠٤ هـ وقد التفت الناس جميعاً حول المأمون ، وعادت إلى الخلافة سطوتها ،
ولم يبق من آثار الماضي سوى لبس الخضر الذي خلعه المأمون بعد بضعة
أيام من وصوله ، استجابة إلى رجاء قواده وأهل بيته (٢) .

(١) كان علي بن موسى من خيرة العلويين وأشرفهم ، وأنبلهم وأقلهم أطماعاً ، وكان يقول :
ينبغي لمن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقل فيه أبو نواس شعراً قط ، فسأله
بعض أصحابه : ما رأيت أوقع منك ؛ ما تركت خيراً ولا طرداً ولا معنى إلا قلت فيه
شيئاً ، وهذا علي بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً : فقال أبو نواس :
والله ما تركت ذلك إلا أعظاماً له : وليس قدر مثلي أن يقول في مثله ، ونظم أبو نواس
هذه المحادثة في قوله :

قيل لي : أنت أحسن الناس طراً	في فنون من الكلام النبیه
لك من جيد القريض مديح	يشمر الدر في يدي مجتنیه
فعلا ما تركت مدح بن موسى ؟	والخصال التي تجمعن فيه ؟
قلت : لا أستطيع مدح إمام	كان جبريل خادماً لأبيه

(ابن خلكان ١ : ٣٢١ - ٣٢٢)

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

لعل القارىء بعد هذا الشرح يوافقنى على أنه من الممكن أن نلتبس
الغذر للمأمون فيما دبر من مؤامرات .

ويحذر بنا أن نذكر أن المأمون بذل جهده فى تخفيف وقع المصائب على
أهل الفضل ؛ فقد روى أنه دخل على أم الفضل فوجدها تبكى ، فقال لها :
أنا ابنك مكانه يا أماه فدعى البكاء ؛ فقالت : إن ابنا ترك لى ابنا مثلك
لجدير أن يبكى عليه (١) .

ولم يكتف المأمون بهذا ، بل استوزر الحسن بن سهل بعد أخيه ،
ومال إليه وتزوج ابنته بوران (٢) .

وأما بالنسبة لعل الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن على
الرضا وظل يغدق على العلويين ويحسن إليهم وعلى شيعتهم ، وكان عهده لهم
عهد يسر ورخاء ، وقد مر الحديث عن ذلك .

(١) ذيل الأمالى ص ٨٦

(٢) الفخرى ص ١٩٧